المحاضرة الثالثة

تقاطع لسانيات النص والعلوم الأخرى

(الإشارة إلى الظواهر النصية في البلاغة)

تمهيد:

يشكل النص مادة بحث تعاورتها كثير من التخصصات العلمية، فنظرت إليه انطلاقا من وجهات نظرها المتباينة، ومن خلال معاييرها الكثيرة[1]، وطبقا لمناهجها المختلفة؛ فالمنهج النفسي يعتدّ بالشعور واللاشعور في تحليل النصوص، وأما المنهج الاجتماعي فينطلق من أن الأدب مرآة تعكس الوقائع الاجتماعية، ومن ثم فالنص الأدبي يشكل واقعا جماليا يختزل الواقع الاجتماعي ويوازيه. وتعاملت البنوية مع النص من حيث هو بنية مغلقة مكونة من مجموعة عناصر تربط بينها علاقات الائتلاف والاختلاف، مقصية "الخارج" بمختلف ضروبه نابذة المؤلف ومتلقي النص على السواء،"ويمكن في إطار ذلك التصور إدراك مواضع التماس بينه وبين علوم الأدب والبلاغة والشعر والاسلوب[2]، فتعددت بذلك مرتكزات هذه التخصصات، بحيث يرتكز البحث في بعضها على الأبنية النصية المتباينة، ويرتكز في بعضها الآخر على وظائف النصوص وتأثيراتها. فلا خلاف حول استقائه أكثر أسسه ومعارفه من علوم تتداخل معه تداخلا شديدا [3] في غمرة هذا التداخل حري بنا أن نوضح موقع لسانيات النص من هذه التخصصات ونحدد العلاقات التي تربطها ببعضها.

علاقة لسانيات النص بالبلاغة:

يؤكد كثير من الباحثين ارتباط لسانيات النص الوثيق بالبلاغة، فقد ارتكزت في أغلب مباحثها على المعطى البلاغي، انطلاقا من الصلة الوثيقة بينهما، إلى الحد الذي أشاع السبق التاريخي للبلاغة على لسانيات النصية، وإن اختلفتا في المنهج والأدوات والتحليل والأهداف[4]. يقول"فان ديك" (*Van Dijk*): "إن البلاغة هي السابقة التاريخية للسانيات النص إذ نحن أخذنا في الاعتبار توجهها العام والمتمثل في وصف النصوص وتحديد وظائفها المتعددة، لكننا نؤثر مصطلح لسانيات النص لأنّ كلمة بلاغة ترتبط حاليا بأشكال أسلوبية خاصة كما كانت ترتبط بوظائف الاتصال العام ووسائل الإقناع[5].

تتقاطع البلاغة مع اللسانيات حيث تقومان **بوصف النصوص وتحديد وظائفها المتعددة**، وإن تبدو **البلاغة أكثر تركيزا على وصف الأبنية الخاصة والوظائف الجمالية والبرهانية أو الإقناعية** لنصوص أو أقوال أدبية، أين "اهتم البلاغيون بدراسة بعض المظاهر الخطابية إبرازا لوعيهم بتماسك الخطاب وارتباط أجزائه بعضها ببعض[6]، وهو ما يعني أن **لهما الأهداف نفسها**، إلا أن **البلاغة تسعى إلى الرقي بالخطاب إلى مستوى تعبير**

---

[1]- تون فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، تر/ سعيد بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط1، 2001، ص:10.

[2]- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مرجع سابق، المقدمة، ص: أ.

[3]- المرجع نفسه، ص: 1.

[4] - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 5.

[5]- اينظر: لمرجع نفسه، ص: 326.

[6] - ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 1996، ص: 318.

قادر على شد انتباه المتلقي والتأثير فيه[7]، انطلاقا من وسائط عدة شكلت منطلقات المعالجة النصية في علم البلاغة مثل: الإيجاز، الفصل والوصل، فضلا عما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني مما له صلة وثيقة بالتئام أجزاء النص ومكوناته وفق ما يقتضيه حسن النظم بتوخي معاني النحو فيما بين الكلم. لذلك يرى بعض الدارسين في **البلاغة الممهّد للسانيات النص**؛ فالانتقال من **التركيز على الجانب المعياري للغة إلى الاهتمام بالجانب الاستعمالي التداولي هو من اهتمامات البلاغيين**. في حين يخالف بعضهم هذا التوجه، إذ يرى الدكتور"سعيد حسن بحيري" أن **البلاغة تتفق مع لسانيات النص في المادة وتختلف معها في الموضوع والهدف**، فمن"أهداف البلاغة إقامة بعض الأبنية المتوافقة مع بعض الاستعمالات اللغوية، أي أنها تعنى بما هو عموم، في مقابل علم الأسلوب الذي يعنى بما هو خصوص، إذ إنه يعنى بالبحث في الأبنية التي تندرج منها الأشكال المستخدمة، ويحلل بدقة كيفية قيامها بوظائفها التواصلية وأثرها الجمالي[8].

وبالتالي فالبلاغة تمكّن المتكلم من طرائق الكلام المؤثر إئتساءً بما أثر عن كبار الأدباء والخطباء، إذ "ينحصر هدفها في توفير القواعد وإعداد النماذج التي يستطيع المتكلم بمساعدتها إقناع سامعيه[9] في حين تسعى لسانيات النص إلى دراسة وتحليل مؤيدات التأثير فيما تحقق من الاستعمال اللغوي. انطلاقا من ضم "تلك القواعد والنماذج والاستراتيجيات المتاحة وتجاوزها إلى إمكانات أخرى توفرت من خلال الإمتداد المعرفي واتساع الأفق والتداخل التصوري –وهو ما مكنها- من تخطي الامتداد الأفقي إلى أبعاد دلالية وإشارية وإحالية تستعصي على النظر المحدود[10].

وهكذا، فقد أدى تداخل البحوث اللغوية والبلاغية والأسلوبية إلى صعوبة تمييز ما هو نصي مما هو غير نصي؛ إذ إنّها كلها تعنى بالمضمون وإن كانت تتوصل إليه بطرق مختلفة، حتى أدوات هذه المناهج تداخلت وصار الربط بين مستويات اللغة المختلفة من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية سمة مشتركة[11].

وبغض النظر عن الرأي الصائب، فإن العلوم يتأثر بعضها ببعض وبخاصة إذا تقاطعت بينها؛ إما في مادة الدراسة أو المنهج، وهو حال لسانيات النص، مما حدا بـ"فان ديك" (*Van Dijk*) أن يعتبرها علما متداخل الاختصاصات.

علاقة اللسانيات بالانثروبولوجيا

إضافة إلى مساعي البلاغيين هناك روافد معرفية أخرى أسهمت بنصيب وافر في دراسة النص الأدبي وفق رؤى وتوجهات بغية الوقوف على كيفية تشكّل النص واشتغاله، كونه نظاما تواصليا له من الخصائص البنوية ما يجعله كيانا قائما بذاته، حيث"أدلى الانثروبولوجيون بدلائهم في هذا السياق. من هؤلاء

---

[7]- نعمان بوقرة، أضواء على نظرية تحليل الخطاب في الفكر اللساني الحديث، مجلة العلوم الانسانية، المملكة العربية السعودية، ع29، 2017، ص: 50

[8]- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، مرجع سابق، ص: 8.

[9]- المرجع نفسه، ص: 9.

[10]- المرجع نفسه، ص: 9.

[11]- المرجع نفسه، ص: 12.

"مالنيوفسكي"(*Maliowisky*) و"فلادمير بروب" و"شتراوس"(*Strauss*) وأتباعه. فقد تميزت دراسة الانثروبولوجيين بالإفادة من علم اللغة البنيوي، في تحليل النماذج، والأنماط السائدة، في الأدب الشعبي، والأسطوري، لإيجاد ما أصبح معروفا بـ"البنى" وتفكيك الرموز لإلقاء الضوء على الأسس المؤثرة في قدرة الناطقين بلغة من اللغات على تأليف النصوص، واستعمالها للاتصال بين الأشخاص[12]. وأما المعنيون بدراسة الحياة الاجتماعية فقد استخدموا اللسانيات للكشف عن الكثير من القواعد التي تتحكم في أداء النصوص على اختلاف وظائفها التثقيفية والاعلامية. اذا كان علم الأنتروبولوجيا يختص بدراسة العلاقة الإنسانية من حيث تميزها، فاللسانيات تلتقي مع هذا العلم من حيث كون اللغة الوعاء الحاوي للثقافة، فدارسة الثقافة من منظور لغوي قد تؤدي الى نتائج عميقة وكذلك الأمر بالنسبة للساني فهو يحتاج في بعض الأحيان الى معرفة خاصة بالبنيات الثقافية لمجتمع ما.

علاقة اللسانيات بالفليلولوجيا:

للفيلولوجيين مساع كثيرة في البحث عن قواعد لعلم النص وأشهر من سعى للكشف عن الروابط بين دراسة النحو ودراسة المعنى "هانري فايل"(*Henre Weil*) الذي طوّر لغويو"براغ" (*Prague*) آراءه بتركيزهم على المنظور الوظيفي للجملة وهو منظور حثّهم على ملاحظة الصلة بين جملتين أو أكثر وتأثر وظيفة الجملة بهذه العلاقة القائمة على التقديم والتأخير في أكثر الأحيان[13]

"وتعزى إلى "هارفج"(*Harweng*) 1968 أول محاولة جادة لوصف التنظيم الذاتي، الداخلي للنص من خلال الحديث عن بعض العلاقات التي تسوده، مثل: علاقة الإحالة والاستبدال مشيرا إلى التكرار والترادف والعطف والترتيب وهذه الآليات التي ذكرها تقع في دائرة الترابط والانساق الداخلي للنص. كما وجدت هذه الأفكار صداها في أعمال "إيزنبورغ" "*Iscenperg*" سنة 1998 الذي اعتنى بالبحث في العوامل المتحكمة في اختيارات صاحب النص، وهي مجموع الأدوات التي تنظم علاقات الجمل بعضها ببعض ؛ كالضمائر وحروف التعريف والتنكير والتعميم بعد التخصيص والاقتران بعلائق سببية، أو غائية أو أي علاقة أخرى[14].

علاقة لسانيات النص بعلم النفس

إن اختصاص علم النفس بشرح طبيعة العمليات اللغوية وآليات إنتاجها وتلقيها، طالما أن الظاهرة اللغوية في جانبها النفسي تتضمن عمليتي الإنجاز والفهم، هو ما أدى إلى نشوء لسانيات النص التي تتكفل بدراسة بنية النصوص وترصد كيفيات اشتغالها انطلاقا من البواعث النفسية التي تتحكم في انتاج الكلام وفهمه، وهو ما جعل هذا العلم يتقاطع مع لسانيات النص، لأن الظاهرة الأدبية لن تكون أشد تعقيدا ولا خصوبة ولا خصوصية من العالم الداخلي للنفس الإنسانية التي تبدعها وتتلقاها[15].

---

[12]- إبراهيم خليل،الأسلوبية ونظرية النّص،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1997،ص:128.

[13]- المرجع نفسه، ص: 129.

[14]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 129و130.

[15]- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، مرجع سابق، ص: 29.

ويمكن تحديد اسهامات علم النفس في تنمية البحوث اللغوية والبلاغية من خلال تلك التي أخذ يحلل فيها آليات التلقي والتذكر، وتكوين الأخيلة بالمعطيات الحسية، وطرق اكتساب اللغة وتمثلها معرفيا، وذلك باكتساب المعلومات الدقيقة عن مستويات الوعي وطبيعة الأبنية اللغوية الماثلة في اللاشعور... مما يلقي أضواء غامرة على مشكلات إنتاج الخطاب الأدبي، وعلاقته بالمبدع، وموقف المتلقي في إعادة إنتاجه[16]، لذا كان اهتمام كل من علم النفس وعلم التربية موجها نحو الطرائق المختلفة لفهم النصوص وعمق استيعابها وإعادة صياغتها. كما تقوم علوم الاتصال الحديثة بالبحث عن التأثيرات التي تحدثها النصوص على آراء وسلوك المتلقين وطرائق تفاعلها لتحديد الأشكال النصية للتواصل في مختلف الموافق والمؤسسات.

علاقة اللسانيات بالتداولية:

التدولية أو الذرائعية أو النفعية أو البراغماتية أو السياقية، وهي في المقابل الأجنبي (*Pragmatique*) ذات الأصل اليوناني (*Pragma*) وتعني" الفعل" أو "الحدث"، إلا أن أكثر المصطلحات تداولا بين الدارسين هي: التدولية، البراغماتية، وتختص بتحليل الأفعال الكلامية ووظائف منطوقات لغوية وسماتها في عمليات الاتصال بوجه عام[17]، لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة[18] هذا العلم الذي بدأ تطوره على نحو صحيح منذ السنوات العشرين الأخيرة، له خاصية التداخل مع عدة تخصصات أخرى. على رأسها لسانيات النص.

علاقة لسانيات النص بالأدب:

لا تعود علاقة الأدب بجميع أجناسه؛ (إبداعا ونقدا) باللسانيات إلى وقت قريب، بل هي قديمة قدم علاقة الإنسان باللغة، وإن لم يشر"**دي سوسير**" إلى هذه العلاقة، فإن "**شارل بالي**" قد مدّ جسورا بين اللسانيات ومناهج الأدب من خلال دعوته إلى دراسة مستوى الكلام الذي أغفله "سوسير"، غير أن العلاقة بين اللسانيات والأدب لم تكن من خلال التطبيق الحرفي لما تقدمه اللسانيات من مفاهيم، بل إن كثيرا من منظري الأدب انطلقوا مما انتهت إليه اللسانيات، من مثل الثنائيات التي تعد طرحا إجرائيا ناقصا ما لم تخرج في شكل جديد يتلاءم وطبيعة البحث الأدبي، فشارل بالي انطلاقا من فهمه لطبيعة الكلام مقابل اللسان هو ما حذا به إلى اقتراح الأسلوبية[19].

غير أن اللسانيات ارتبطت في بداية عهدها بأصول الفكر الوضعي وهو ما يفسر رفضها التعامل مع كل ما يتعلق بالفرد المتكلم (الذاتية والإيحائية) مما ترفضه اللسانيات، لكنها على المستوى الأدبي أساس الإبداع والفهم

---

[16]- المرجع نفسه، ص: 29، 30.

[17]- تون فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ص: 114.

[18]- جورج يول، التداولية، تر/ قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص: 19.

[19]- ينظر: مصطفى غلفان، تحليل المكون اللغوي للنص الأدبي بين اللسانيات ومناهج التحليل الأدبي، أعمال ندوة مكونات النص الأدبي، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1988، ص: 222،221،220.

والتلقي[20]، ففي الوقت الذي أكدت فيه الأبحاث الأدبية بزعامة رولان بارث على ضرورة اعتماد الإيحاء من حيث هو بعد سيميولوجي، رفضه أندري مارتيني في بعض أبحاثه اللسانية، وتأكد مع البنوية الأمريكية حيث قال"بلومفيلد"1933:"إن الدلالة هي نقطةالضعف في اللسانيات"[21].

غير أن هذا لا يعني أن اللسانيات لم تعط شيئا للبحث الأدبي، فاستراتيجية التعامل مع النصوص الأدبية هي نفسها استراتيجية لسانية، ثم إن تعامل البحث الأدبي مع اللسانيات لم يتوقف عند حدود الأطروحات النظرية اللسانية، بل إن بعض الباحثين الأدبيين طوروا أجهزتهم المفاهيمية بتطوير البحث اللساني، من مثل توظيف بعض مفاهيم النحو التوليدي (التحويل، البنية السطحية، البنية العميقة...) إذا كانت هذه العلوم تتفق في فكرة المادة الأساسية التي يبنى عليها البحث والتحليل والفهم ألا وهي النصوص من حيث هي مادة مشتركة بينها جميعا، فإنّها تختلف في وجهة النظر إليها وتحليلها وكيفية توظيفها واستخلاص النتائج منها. بيد أن التطور الذي حدث في العقدين الأخيرين من القرن الماضي جعل مشكلات النصوص وأهدافها في فروع علمية مختلفة موضوعا لدراسة متكاملة شكلت بصورة حتمية موضوعا جديدا سمي بـ:"لسانيات النص" (*textuelle Linguistique*). تكمن السمة الجوهرية المميزة للسانيات النص عن باقي البحوث الأخرى فيما أطلق عليه "التداخل المعرفي" لأن النص يتطلب دراسة واسعة في فروع مختلفة، فقد تشعبت المنابع التي استقى منها مفاهمه وتصوراته ومناهجه، واتسم البحث النصي بقدرة فائقة على استيعاب كل ذلك الخليط المتباين، بل وتشكيل بنية منسجمة قادرة على الحفاظ على ذلك التداخل من جهة وإبراز جوانب التفارق بينه وبين العلوم الأخرى من جهة ثانية، وشكلت الخواص التركيبية والدلالية والاتصالية للنصوص صلب البحث النصي بمعنى أن البحث يتحقق على مستويات ثلاثة أساسية وهي: المستوى النحويوالدلاليوالتداولي بالمفهوم الواسع له.

---

[20]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 222.

[21]- المرجع نفسه، ص: 223.